مجلة الدراسات الإفريقية ـ العدد ٢٦ (٢٠٠٤) ، ١٠٢ - ١٣٦

لمحات أنثروبوجغرافية فى مورفولوجية البيئة وحياة الناس فى مجتمعات مختارة من القارة الأفريقية

د/ فاروق عبد الجواد متولى شويقة(*)

مقدمة :

تسير الحياة للأمام دائما The show must go on هكذا نعرفها نحن البشر والآدميين ولا أقول الآناسى ، ولكن ربما الناس ، وسير الحياة وتقدمها لا يتم إلا بتوافق قدرات البشر مع معطيات البيئة ، وهذا لا يتم إلا بالتفاعل Interaction الكامل والصحيح والمستمر بينهما. فإذا تم هذا فى الوقت وبالسرعة المناسبة ازدهرت الحياة وتقدم المجتمع وإلا لم تتقدم الحياة أى يحدث تخلف وتدهور نسبى لها.

ويدخل موضوع هذه الدراسة فى نطاق دراسة الإيكولوجيا البشرية خاصة فى مجال دراسة أثر البيئة على الكائن البشرى وأثر ذلك الكائن بمفرده أو بمجتمعه على البيئة، وهى أيضا تشتمل على دراسة عناصر وعوامل الاستعداد الوراثى للأذى البيئى(١)، وأن كانت الأولى تدخل فى مجال الجغرافيا وأيضاً الأنثروبولوجيا الطبيعية، فإن الثانية تدخل فى مجال البيولوجيا والوراثة وأيضاً الأنثروبولوجيا الطبيعية ومن هنا كان اهتمام كاتب هذا العمل باعتباره متخصصاً فى الأنثروبولوجيا الطبيعية الإيكولوجية، علماً أن تخصص الإيكولوجيا ينتظره الكثير من آفاق التوسع والاهتمام فى المستقبل. (٢)

(*) أستاذ بقسم الأنثروبولوجيا – معهد البحوث والدراسات الإفريقية .

(١) كانتور، تشارلسى : "التحديات أمام التكنولوجيا والمعلوماتية". فى : كيلفسى، دانييل وهو، ليروى : الجينوم البشرى؛ القضايا العلمية والاجتماعية، ترجمة أحمد مستجير. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص٧٦ .

(٢) ذات المصدر، ص٨٣ .

ولقد كانت البداية الحقيقية لتبديل وتغيير انماط الحياة بسرعه، مع بدء العصر المحورى (٧٠٠ ق.م - ٢٠٠ق.م) حيث بدأت تظهر آثار توافر فوائض الإنتاج الزراعى عن حاجات الاستهلاك الأسرى والعائلى المحدود فكان أن ظهرت الأسواق التى يتجمع فيها الكافة من منتجين ومستهلكين فيتبادلون السلع والخدمات والتكنولوجيات والمعلومات، وهكذا بدأت منظومة الحضارة التى ما زالت مستمرة فى صعود وتقدم حتى اليوم، وما بعده إلى ماشاء الله.

ولعل الميزة الأولى التى ينفرد بها الإنسان هى استعداده للعلم، لذلك فقد استحق الخلافة فى الأرض والسيطرة عليها، ومن هنا كانت بداية علاقة الإنسان بالأرض وتطورها وهذا هو مجال دراسة الجغرافيا الأنثروبولوجية والأنثربولوجيا الايكولوجية وهى تلك التى ترتبط بالإيكولوجيا البشرية بقوة.

وتتكون الدراسة المعروضة من عدة نقاط هى (بعد المقدمة) : التفاعل الإيكولوجى - الترابط بين البيئة وحياة الناس - تطبيقات مختارة أفريقية، ثم الخاتمة تتبعها بعض الأشكال وأخيراً تأتى بيبلوجرافية.

الحقيقة أنه فى الواقع الإمبيريقى لا تتعامل حياة الناس اليومية إلا مع معطيات البيئة الجغرافية الأنثروبولوجية وهى تلك التى تتكون من تفاعلات القوة (بصورها المختلفة) مع مصادر المادة المتباينة، (مع أنهما - القوة والمادة - صورتين لشئ فيزيقى واحد) حيث يتكون متصل وكيان واحد هو الوسط أو البيئة الإيكولوجية التى يحيا فيها الناس، ومن خلال تباين البيئات، تتباين المجموعات البشرية من مكان إلى آخر فى الزمن الواحد، أو من زمان إلى آخر فى المكان الواحد، وهكذا دائما تكون حياة الناس.. فى تغير دائم.

التفاعل الإيكولوجى

تهتم الإيكولوجيا البشرية بتفاعل أفراد المجتمع البشرى مع مكونات البيئة التى يعيشون فيها، وهذا التفاعل دائم مستمر منذ ظهور الفرد فى الحياة - بل

وقبل ذلك أيضاً – ويستمر حتى مماته بل وربما بعد ذلك ايضاً. وعليه فالتفاعل قائم وكائن ومفروض فيزيقيا، ولكنه فى ذات الوقت احتمالات صوره كثيرة للغاية حيث أنها تتأثر بكل مكونات البيئة كما تتحكم فيها الإرادة الحرة للكائن البشرى.

وعليه فإن ما قيل من أن الإيكولوجيا البشرية (نمط الحياة) تعتمد فى بحوثها ودراساتها على مجالين من مجالات المعرفة هما : الجغرافيا الإقليمية الدقيقة Micro- Regional Geography ، والجغرافيا الأنثروبولوجية Anthropo-geography لايبتعد كثيراً عن الواقع(١).

هذا ويعتبر علم الاجتماع Sociology من أهم المجالات المعرفية (ومعه الأنثروبولوجيا) التى تدرس وتهتم بمجال الإيكولوجيا البشرية وما يتصل بها من معارف وعلوم عديدة تكاد تغطى كل المعارف الإنسانية.

وكان هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) أول من طبق بشكل منهجى مفهوما البنية Structure والوظيفة Function وهما اللذين استخدمهما كثيراً علماء الأنثروبولوجيا بعد ذلك خاصة فى مجالات التشريح Anatomy وعلم النفس Psychology والاجتماع Sociology ، حيث أن كل من البنية والوظيفة متلازمتان كقطعة العملة الواحدة التى لا يمكن تواجدها إلا مع وجهين لها مترابطين.

ولعل خير مثال كلاسيكى على ذلك – فى مجال الدراسات الاجتماعية – ما ورد فى كتاب سبنسر مبادئ علم الاجتماع من دور الأبنية المؤسسية المختلفة : القرابية – الدينية – اللغوية – المهنية – الاقتصادية – السياسية وغيرها ووظائفها فى تفاعلاتها المختلفة فى المحافظة على تماسك المجتمع، وهذا مصداقا

---

(١) فاروق عبد الجواد شويقة : الاكلوجيا البشرية، "المفهوم – المجال- الهدف" مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الثالث ١٩٧٤، ص ١٨٣-٢٠١

لما قيل من أنه كى تفهم كيف نشأت منظومة ما وتطورت فإنه من الضرورى تفهم الحاجة وراء تلك المنظومة حين نشأت وبعد ذلك(١).

ولعل من المناسب اتباع منهج سبنسر للتكيف الوظيفى عن طريق تطبيقه على المنافسة بين أنماط الحياة المتباينة فى المجتمعات المختارة محل الدراسة فى هذا العمل الذى بين أيدينا.

وتقول نظرية سبنسر فى بزوغ وأفول أنماط التنظيمات الاجتماعية أن عملية التغير الاجتماعى دائرية السمات تتحكم فيها التغييرات البيئية(٢)، أى أن موروفولوجية البيئة هى التى توجه حياة الناس، وعندى أن هذا ليس كامل التوجه بل أنه مرتبط بالإرادة والعمل؛ الذى يوليهما ويقدمهما ناس وتنظيمات المجتمع المعنى، وبطبيعة الحال تتغير هذه الظروف والأحوال بتوافر - أو عدم توافر - عناصر وعوامل اجتماعية كثيرة.

وتعتبر قدرات البشر - البيولوجية والثقافية - من أهم الموارد الطبيعية للدول والمجتمعات خاصة النامية، وكل أفريقيا منها، وهكذا دَرَسنا الأنثروبولوجيا لدارسى الدبلوم العالى تخصص الموارد الطبيعية، وتلك حقيقة حقيقية يتفهمها من يتعمق الفهم، لذلك كان من أوجب الواجب الاهتمام بنظم وأطر الصحة العامة والصحة الإنجابية قبل وأثناء وضع وتنفيذ نظم تعليمية سليمة تعتمد على غرس الفهم والوعى والإبداع؛ من أجل خلق مجتمع قوى بيولوجيا وثقافياً وحضارياً(*)، وأعتقد أن ذلك لا يتم إلا من خلال تقليل فترة الاعتمادية(**) التى تعودت عليها شعوب أفريقية كثيرة أثناء الموجة الاشتراكية السابقة، ومازالت لأنها مجتمعات من تلك التى تحت الوعى البشرى.

---

(1) Spencer, H. : The Principal of Sociology, Vol.3, New York, Appleton, 1896, p.3.

(2) Ibid, p.556

(*) لمعرفة الفرق بين الثقافة والحضارة ، راجع : فاروق عبد الجواد شويقة : الأنثروبولوجيا الطبيعية والسلالات البشرية. ط٢، أ ,٢ القاهرة، دار روتابرنت، ١٩٨٦، ص٢ .

(**) الكائن البشرى هو صاحب أطول فترة إعتمادية بين أجناس المملكة الحيوانية .

والحقيقة أن علم الاجتماع ليس بالدرجة من السوء والتفاهة التى ذكرت فى آراء بعض علمائه وأساتذته فى الغرب والشرق على السواء[1]، وإن كان شأنه شأن غيره من العلوم النظرية خاصة فى شرقنا العربى ومصر على وجه الخصوص فى حاجة إلى مزيد من الإخلاص والتفانى والموضوعية والشفافية والصدق فى أعمال المشتغلين به وفيه، أقول هذا بعد خبرة عملية علمية[*]، أرجو أن تنتهى قريباً بخير وعلى خير.

ولعل من أهم الصفات المورفولوجية للفرد البشرى (الشائع تسميته إنساناً) Homo Sapiens Sapiens هو نجاح قدراته الجينية للتكيف مع البيئة المحيطة والمتغيرة باستمرار (بعض الزواحف لها هذه القدرة) ولكنه يزيد عليها بقدرته الإبتكارية والإبداعية (الجمالية والفنية..) مما يعطيه الفرصة والحق فى تطوير نمط الحياة دائما إلى الأحسن والأفضل بحيث لا تنتهى تطلعاته ولا إمكاناته.

ولقد سادت فى فترة الثلث الأول من القرن السابق (العشرين) نزعة العنصرية تلك التى تعد التفوق مرتبطة بمعايير ملاءمة وقيم اجتماعية يغلب عليها أن يكون أصحابها من ذوى اللون الأبيض ومن الطبقة الوسطى وديانتهم البروتستانتية (WASB) .

وهى معايير تنطبق على الآريين[2] تلك هى سمات التفوق التى تبنتها العنصرية[**] الأوربية التى هاجرت إلى بلاد العالم الجديد وكانت من بينها جنوب

---

(١) أحمد إبراهيم خضر : علم الاجتماع بعد مرور مائة عام (٢)، كلام عامى ورطانة غامضة، الأهرام، السبت ١٧ أغسطس ٢٠٠٢، ص١٢ .

(*) اشترك كاتب هذا العمل فى عضوية اللجنة الدائمة لترقيات أساتذة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا - وليس فى الجغرافيا - فى الجامعات المصرية منذ ١٩٩٨ (أى أخيرا والحمد لله) وحتى الآن و(وقريبا سيترك - ولله الحمد)، فرأى وعاصر (وإن لم يشارك - فلاقى الكثير) فى المطبخ، وما أدراك ماهو .

(٢) كيفاس، دانييل : "من تحت معطف اليوجينيا : السياسة التاريخية للطاقم الوراثى البشرى فى : كيفلس، دانييل؛ هو، ليروى (محرران) : الجينوم البشرى؛ القضايا العلمية والاجتماعية ترجمة أحمد مستجير. القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص ١٩ .

(**) ظهرت فكرة العنصرية بعد إنشاء معهد الأنثروبولوجيا والوراثة البشرية واليوجينيا عام ١٩٢٧ فى برلين حيث قدمت اليوجينيا (البحوث والدراسات التى تهدف إلى تحسين جنس الإنسان عن طريق معالجة وراثته البيولوجية) بحوثا كثيرة (المصدر السابق، ص١٤) .

أفريقيا واستراليا ونيوزيلاند والولايات الشمالية الشرقية من الولايات المتحدة الأمريكية.

ولهذا تتركز أهمية معرفة نمط الحياة المزاولة والأخرى المأمولة، فى السعى إلى تغيير السلوك الفردى فالمجتمعى ثم الاجتماعى، ذلك الذى يتضمن كل الأنساق، فإنه إذا تم ذلك ولو حتى بدء فيه، وظهرت تباشير تأثيراته، ستتغير أنماط الحياة إلى الأفضل حيث ستظهر الممارسة الديمقراطية السليمة وسيرتفع مستوى المعيشة عن حد الكفاف وستظهر فوائض المال والوقت والجهد فتتدعم الحضارة وتعود وتستقر ويطمئن الجميع على الغد ولا يهجرون أوطانهم، حيث سيزداد الانتماء ويعم الرخاء وينعدم العنف والإرهاب.

الترابط بين البيئة وحياة الناس

هناك علاقة وطيدة وتفاعل كامل ودائم بين البيئة وبين جميع الكائنات الحية، ومن بينها الناس فرادى وجماعات فى كل العصور والآماد، هذا وللبيئات أنماط وأنواع عدة، تبعا وبسبب اختلاف وتباين المواقع Situations (بالنسبة للبيئات والإقاليم الكبرى Macro)، والمواضع Sites (بالنسبة للبيئات الصغرى Micro) وهذا هو التصنيف الجغرافى .

أما الاجتماعيون والأنثروبولوجيون فلهم نظرة أخرى للبيئات حيث يربطون تقسيمها وتصنيفها بمدى المباشرة فى انتفاع الناس من خيراتها أو بمدى معاناتهم أثناء الحياة فيها.

أولاً : البيئات :

هذا وتتعدد أنماط البيئات (شكل ١) التى تتفق مع النظم البيئية Ecosystems وهى تلك التى أصبحت حالياً فى أغلبها بشرية أى ظهر عليها آثار وأفعال البشر ما بين الإيجابية والسلبية، وذلك من خلال الأفراد مباشرة أو

من خلال المؤسسات الاجتماعية وصورها المتباينة، وهذة التقسيمات الست المذكورة من خلال - نظرية القابلية الاجتماعية والثقافية للنماء[1].

وسوف نعرض أهم مميزات كل قسم منها مع ربطه بما يوافقه - فى رأيى- من أقاليم فلير H.J.Fleureالبشرية[2] وهى التى يعرفها الجغرافيون جيداً.

١ - البيئة المرنة (السلسة) Resilient وهى التى تقابل إقليم العمل وبذل الجهد Region of Effort عند فلير وخير مثال له على النطاق الواسع الكبير Ma-gro Scop هو إقليم غرب أوربا المعروف جغرافيا، وهو بيئة النشاط، ولعل دراسة فلير المعنونة : The Making of the Future, Human Geography in Western Europe, 1918؛ كانت الأساس الجغرافى[3] الذى بنيت عليه دراسات وبحوث إيكولوجية وأنثربولوجية كثيرة.

٢ - البيئة الكريمة Benign وتقابل إقليم الغنى والوفرة Region of Increment مثل إقليمى البحر المتوسط، الموسمى، حيث الغنى الطبيعى الذى يدفع الفرد البشرى لحرية الحركة وهو مطمئن للعائد الذى سيحصل عليه سيكون مجزياً، كما أن الحياة ستكون حرة (Laissez Faire, Laissez Passer دعه يعمل دعه يمر).

ويناسب هذه البيئة نمط الحياة الفردية حيث يكون أتباعها متفائلين للغاية حول الفرص التجارية المتاحة، وذلك للأسباب وطبقاً لما سيأتى بيانه.

٣ - البيئة الزائلة Ephemeral وتقابل إقليم الجوع أو الفقر Region of Hun-ger، وذلك حيث يشعر الفرد فيها بالخوف والقلق على/ من الغد، وحيث يصبح أقل تغيير فى رتابة سير الأحداث يعد مؤشراً بحدوث إنهيار كامل،

---

(١) تومبسون ، ت. وآخران : نظرية الثقافة، ترجمة على سيد الصاوى. الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧، ص ٦٧ .

(2) Fluere, H.J. : Regions in Human Geography. Scot. Geogr. Mag., Vol.35, 1919, p.94-105.

(٣) فاروق عبد الجواد شويقة : الجغرافيا الأنثروبولوجية. القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٧، ص٢٤ .

لذا فإنه على المؤسسات المجتمعية أن تتعامل مع هذا النظام البيئى بحرص شديد ووعى كامل.

ويتفق مع هذه البيئة نمط الحياة المساواتية - كما سيأتى بيانها - ولعل أهم سماتها أنه لا ينتظر أهلها الرخاء، إذ أن هذه البيئة كثيراً ما يكون حصيلة عمل أهلها سلبية لظروف طبيعية وأحياناً بشرية عديدة.

٤ - البيئة المتقلبة Capricious وتقابل إقليم الضعف Region of Debilitation مثل المناطق الإستوائية، وهى تلك التى تظهر العشوائية فى عناصر وعوامل مكوناتها الطبيعية، مما يفرض على أهلها اليقظة والاستعداد الدائم للتعامل مع هذه المتغيرات غير المنطقية والفجائية، لذا فإنه يغلب على أهلها أن يكونوا من القدريين الذين لايتوقعون حسن أو سوء توافقهم مع هذه البيئة التى لا تكاد تستقر على حال حتى تتغير.

٥ - البيئة العنيدة Perverse وتقابل إقليم الصعوبة Region of Difficulty مثل المناطق الجبلية، تلك التى لا تتوازن فيها عناصر مكوناتها الطبيعية، لذا فإنه يجب على المؤسسة المديرة أن تضبط وأن تتحكم فى الآثار الناجمة عن الأحداث غير العادية.

وهذه البيئة العنيدة صعبة المراس، تزداد معاناة الفرد البشرى فيها إذا أخطأ فى عدم التوافق مع معطيتها الطبيعية.

٦ - البيئة المتسامحة Tolerant وتقابل إقليم الارتحال Rigion of Nomadism هذه البيئة المعطاءة إزاء معظم الأحداث ولكنها حساسة بحيث تدفع أهلها للحركة مع أقل تغير قد يحدث، حيث أن ميزان توازنها دقيق، وهذه البيئة تصبح متسامحة عن جدارة إذا سكنها واستخدم إمكاناتها الفرد البشرى الصحيح المناسب الذى يستطيع فعلاً التلاؤم مع ظروفها وأحوالها المتغيرة باستمرار.

ثانياً : أنماط حياة الناس :

تتنوع وتتشكل صور حياة الناس وذلك طبقاً لنظرية القابلية الاجتماعية الثقافية للنمو Theory of Socio-Cultural Viabilityالتى وضعها كل من :

ميشيل تومبسون Michael Thompson

ريتشارد اليس Richard Ellis

آرون ديلدافسكى Rarpon Waldavsky

ونشرت عام ١٩٩٠(*) (شكل ٢).

هذا ويشتمل نمط الحياة Way of Life كلا : من العلاقات الاجتماعية Social Relations وهى أنماط العلاقات الشخصية بين الأفراد، كذا الحيزات الثقافيةCultural Biass، وهى التى تشير إلى القيم والعلاقات المشتركة(١) بين أفراد المجتمع وهى التى تصوغ تفضيلات أعضائه(٢) ونمط الحياة بذلك هى الثقافة السائدة والشائعة فى المجتمع.

والجدير بالذكر أنه غالباً ما يتبع الفرد والمجتمع أكثر من نمط واحد فى آن واحد، وقد يتحول من نمط إلى آخر، من أنماط الحياة الثقافية الخمس القابلة للنماء وللتنافس(٣)، والتى نوجز أهم صفاتها فيمايلى:-

أ - **المعتزلية (الاستقلالية)**: هى نمط الحياة التى يغلب على الأفراد فيها الانسحاب العمدى من العلاقات الاجتماعية القهرية التى تنغمس فيها أنماط الحياة الاندماجية الأربعة الأخرى بطرقها المختلفة(٤).

(*) Cultural Theory, Boulder, San Francisco وعربه على سيد الصاوى ونشرته سلسلة عالم المعرفة - ٢٢٣، يوليو ١٩٩٧

(١) المصدر المشار إليه ، ص٣١

(٢) ذات المصدر، ص ٢٥٩

(٣) نظرية الثقافة، مصدر سابق، ص ٣٠٠

(٤) نظرية الثقافية، ص٤٤

ويمارس الفرد حياته فى هذا النمط، بطريقة فردية أكثر منها جماعية كأن يعمل سائق تاكسى أو حارس مبنى أو مزارع بسيط، وهو بذلك مكتفى ذاتياً حيث يستريح إلى عدم ولائه إلى غيره وهؤلاء يسعون للاندماج مع الطبيعة باعتبارها توفر خيراتها وتتيحها للجميع، لذا فغالباً ما لا يفكرون فى أمور الغد كثيراً(١)، وعليه فإن جماعتهم(*) قليلة التفاعل مع سائر مجموعات الشبكة، حيث يقتنع الاعتزاليون بحد الكفاية ويكتفون بالهرب إلى الداخل، مع أنهم لا يمانعون فى الحصول على الأشياء الطيبة شريطة عدم الخضوع والخنوع للغير(٢).

ويميل أصحاب هذا النهج فى الحياة إلى عدم قرض أحد أو الاقتراض من أحد، حيث يكتفون بما يحصلون عليه من موارد طبيعية، فهم أشبه بمحترفى الجمع والالتقاط، وعليه فإن الاعتزالى يعد بعيداً عن كل أشكال الانخراط، هذه التى تعظم المعاملات.

والاعتزاليون يتخلصون من الماضى على نحو منتظم وذلك حتى يستقروا بأنفسهم فى نمط حياتهم الاستقلالى(٣) ذا الانحياز المتميز الذى يبعد عن كل اندماج اجتماعى قهرى(٤).

ب - الفردية: إحدى أنماط الحياة الراسخة (مع التدرجية)، واتباعها هم من يعولون على القدرات الكبيرة للمهارات البشرية الظاهرة والكامنة والمتنامية، التى يظهرها البشر فى استخدام المواد الخام،المتوافرة بكثرة ولكن لا يمكن الاستفادة منها إلا إذا توافرت مهارات بشرية متميزة(٥)، وعليه فهى تتميز بكونها جماعة ضعيفة وإن شبكة قيودها ضعيفة أيضاً(٦).

---

(١) ذات المصدر، ص٤٦ .

(*) الجماعة بمعنى خبرة الوحدة الاجتماعية المترابطة (نظرية الثقافة، ص١٧٦) .

(٢) نظرية الثقافة، ص ١٢٢ .

(3) Durkheim, Elimle :The Elementary Forms of the Religions Life. New York, Free Press, 1963, p. 423

(٤) ذات المصدر، ص٢٥٥ .

(5) Douglas, Mary : Natural Symbols. London, Barrie and Rockliff, 1970, p. VIII

(٦) نظرية الثقافة، ص ٤٢٦ .

فالأفراد ذوى القدرات والمهارات الممتازة دائما ما يحتلون مركز شبكة العلاقات وبؤرة اهتمام المجتمع حيث يعتمد نمط حياتهم على قدرة المتنافسين على الاستيلاء على فوائد المخاطر التى يتحملونها(١)، وذلك باعتبار أن المخاطرة تعد إحدى العمليات الاجتماعية(٢)، وأيضاً تعتبر فرصة، يفضل اقتناصها.

والفرديون ينسبون الفشل الشخصى إلى الحظ السئ Bad Luck، أو عدم المقدرة الشخصية أو من خليط من ذلك، وعليه فالنظام التنافسى - فى هذا النمط من الحياة - نفسه دائماً يظل خارج اللوم(٣).

ويبرع الفرديون فى اقتناص الفرص الخاصة باستغلال الموارد الخام الطبيعية ما دامت ذات قيمة(٤) اقتصادية، ويعملون على الحصول على أكبر استفادة منها، بأقل حد من المخاطر، لذا فإنهم يتميزون بأن لديهم درجة عالية من المهارات التنظيمية والثقة الكافية لعقد الصفقات(٥)، ولذلك فربما يستفيدون من التحالف مع التدريجية باستخدام التكنولوجيا المتقدمة(٦)، وبتوفير السلطة المركزية وتعزيزها حتى يمكنهما ردع الاعتداء الأجنبى(٧).

والفردية بذلك تعد أحد أنماط الحياة المتنافسة التى تمثل معها، فى التدرجية والمساواتية(٨)، إذ أن الحياة المتنافسة داخل المجتمع لا تظهر إلا من خلال أنصار نمط الحياة المرغوب، كما أنهم يرون أن التنظيم الذاتى أفضل من تنظيم السلطة لذا يسعون لتحقيق ذلك(٩).

---

(١) ذات المصدر، ص١٢٠ .
(٢) ذات المصدر، ص١٢٣ .
(٣)ذات المصدر، ص١١٩ .
(٤) ذات المصدر، ص١٢٢ .
(٥) ذات المصدر، ص١٧٣ .
(٦) ذات المصدر، ص٤٢٦ .
(٧) ذات المصدر، ص٢٦١ .
(٨) ذات المصدر، ص٣٠١ .
(٩) ذات المصدر، ص٣٤٧ .

جـ - المساواتية : إحدى الأنماط النشطة (مع الفردية - التدرجية) وهم الجماعة الذين يرون أن الفرد البشرى مستغرقاً فى دائرة حلزونية من استنزاف الموارد الطبيعية المحسوبة بدقة(١)، لذا فإنهم يهتمون بكل صغيرة وكبيرة، ومع أنهم يحتفظون بجماعتهم منقطعة الصلة بمن حولها، إلا أنهم يكتسبون قوتهم من تماسكهم الداخلى حيث يرتبط كل فرد بالآخر داخل الجماعة(٢)، ولكنهم مع ذلك يرفضون السلطة لذا فإنهم يلقون اللوم فى حالة وقوع الكوارث على النظام - عكس التدرجية كما سيأتى ذكرها- لذلك فعندهم أن البقاء داخل الجماعة المساواتية أكثر أمنا من خارجها، حيث يمكن لكل فرد أن يشترك فى كل قرار(٣) ولو نظرياً.

هذا ويتم التضامن إلى داخل الجماعة عن طريق تصوير القوى الخارجية على أنها وحشية تؤيد المنحرفين لتلويث داخل الجماعة(٤) بهدف أحداث ميول انشقاقية فيها(٥).

وينجح المساواتيون فى اقتناص الفرص والمخاطر التى قد تفوت على الآخرين، مع العمل على دفع أكبر وأكثر أضرارها بعيداً عنهم(٦)، ومع ذلك فإنهم أكثر الأنماط طوباوية(٧)، وبعامة يطلق على هذا النمط (المساواتية) ثقافة النقد(٨) وهم بحق فى موضع وسط بين تقييد الفرد بقوة فى المجتمع فينتج نمط القدرية، وبين التقيد الضعيف للفرد فى المجتمع فينتج نمط الفردية، فالمساواتية فى موضع وسط بين كل من القدرية بسماتها وبين الفردية بسماتها(٩).

---

(١) نظرية الثقافة، ص٤٦ .
(٢) ذات المصدر، ص٤٨ .
(٣) ذات المصدر، ص٣٣ .
(٤) ذات المصدر، ص١١٨-١١٩ .
(٥) ذات المصدر، ص ١٢٤ .
(٦) ذات المصدر، ص ١٢٥ .
(٧) ذات المصدر، ص١٧٥ .
(٨) ذات المصدر، ص١٤٩ .
(9) Durkheim, Emile : Sucide, A Study in Sociology. New York, Free Press, 1951, p. 258.

ولما كان المساواتيون يطلبون المساواة فى علاقات القوة[1] فى المجتمع فإنهم يطلبون أيضاً توازن البيئة التى يعيشون فيها، ولكنهم لا يطلبون لها-فى ذات الوقت- إلا التنمية الممكنة المرغوبة فقط[2]، وذلك من خلال الجماعة التى يرتبطون بها بقوة.

وتزدهر فى ظل هذه الثقافة المساواتية قيادة الزعامة الملهمة (الكاريزما)، ويتميز هذا النمط من الحياة بخفة القيود التى تفرز علاقات اجتماعية تقوم على المساواة بين أطرافها رغم أنه يزدهر فيها نمط قيادة الزعامة محل القانون كمصدر للسلطة؛ حيث أن المساواتين هم الذين يتوافر لديهم الحافز لإسباغ قدرات خارقة على الزعماء[3].

هذا ويرى المساواتيون أن الطبيعة دائماً هشة ضعيفة[4] أمام فعل وعمل الجهد البشرى وهو الذى يزداد أثره بطبيعة الحال بمرور الوقت مع ما يصاحبه من تقدم تكنولوجى.

د- القدرية: هم الراضون الذين يرون ثروات وفيرة حولهم، وهم من ينتظرون الفرص المتاحة، التى قد يمنحها عالم الوفرة أحياناً، لذا لا يرون لأفعالهم أهمية كبيرة، ونظراً لاعتمادهم على الغيبيات - ربما أكثر - من الواقعية فإنهم لا يشغلون إلا حواشى وأطراف شبكة المجتمع وعلاقاته.

والقدريون لا يلومون وأيضاً لا يثقون فى الفرد؛ حيث أن الأحداث لا تخضع لسيطرته، إذ أن العالم يفعل لنا أحداثاً سارة أحياناً، وأيضاً قد يحدث لنا أفعالاً غير سارة، ونحن فى الحالتين لا نستطيع تفهم ما وراء ذلك[5].

---

(١) نظرية الثقافة، ص ٢٥٤ .
(٢) ذات المصدر، ص ٢٦٣ .
(٣) ذات المصدر، ص٣٦٩ .
(٤) ذات المصدر، ص٤١٦ .
(٥) نظرية الثقافة، ص١١٩ .

وعلى خلاف المساواتى، ليس للقدرى جماعة يعمل على المحافظة على تماسكها فهو ليس فى حاجة إلى البحث عن أعداء خارجيين، وبدلاً من ذلك ينثر اللوم على القدر (الحظ) ذلك الكيان الهلامى غير المحدد(١).

ويتخذ القدرى السلبية الشديدة وسيلة للتكيف مع المخاطر التى قد تنزل به؛ متخذاً من مبدأ : "ما لا تعرفه لا يؤذيك" شعاراً له، وهذا يجعله لا يشعر بالقلق حيال الأشياء التى يعتقد أنه لا يستطيع شيئاً إزاءها(٢). ورغم أن عالم القدرية عالم وفرة، إلا أن الحظ والصدفة، قل القدر وليس الجهد والعمل والمهارة هو الذى يحكمه، وكما يقول بانفيلد(٣):"حينما يعتمد الجميع على الحظ أو التدخل الإلهى يتلاشى الفعل الجماعى، حتى ولو كانت الجماعة -مثل الفرد- تصلى وتدعو من أجل تحقيق شئ معين إلا أنها من غير المحتمل أن تصنع مصيرها بيديها".

ويعتبر نمط الحياة القدرى داعماً لذاته على النحو التالى :- لا فعالية .. لا فعل جماعى.. لا تجميع للموارد .. لا نمو اقتصادى.. ثم يصل إلى : لا ثقة.. لا تعاون.. لا ديمقراطية.. بل يأس ولا مبالاة وعليه فإن هذا النمط القدرى يترك أنصاره معرضين لتأثير البيئة والناس؛ أى بتركهم مكشوفين؛ فى مهب الريح.

وبعامة فإن القدريون هم الصابرون الذين سوف يرثون الأرض بل ولهم ملكوت السموات، لذا فليس غريباً أن يطلق عليهم أصحاب ثقافة الفقر، مع أنهم قد تعلموا أن لا يريدون إلا ما يستطيعون الفوز به(٤).

هـ - التدرجية : إحدى أنماط الحياة الراسخة (مع الفردية) ، وأتباعها هم من يعتمدون على التخطيط لوضع إطار عمل من أجل تنمية وتوزيع الموارد، لذا فإن اتباع التدرجية يرون أن المرء يجب أن يكون متماثلاً مع المحيط

---

(١) ذات المكان .

(٢) ذات المصدر، ص ١٢٤-١٢٥ .

(3) Banfield, Edward C. : The Moral Basis of a Backward Society. New York, Free Press, 1958, p.109

(4) Elster, Jon : Making Sense of Marx. Cambridge, Cambridge Univ. Press, 1985, p.20-27.

الاجتماعى[١]، وعليه فإن النجاح فى الحياة يتأتى من قيام كلٌ بدوره الصحيح وبالمنهج الصحيح وفى المكان الصحيح وفى الزمان الصحيح.

ويعتقد التدرجيون فى هيراركية البنية البيروقراطية المختلفة فى ذلك عن البنية الفردية للسوق، كما أنهم يزيدون من تفاعلاتهم بربط أنفسهم بالجماعات الأخرى[٢] أى أن ارتباطاتهم خارجية، بينما ارتباطاتهم الداخلية محدودة بل ومنضبطة بشدة، لذا فإن لهم من الأساليب الفنية ما يوزعون بها التهم ويسقطون اللوم على المنحرفين وليس على النظام؛ الذى هم جزء أساسى فيه، حيث أن النظام هو الكيان الذى يربط الفرد والتدرجية الهرمية[٣] فى رباط وكيان واحد هى الحياة الراسخة.

هذا ولايُهاب التدرجيون قبول المخاطر المحسوبة وذلك ما دام إتخاذ القرار لا يقدره إلا الخبراء (وليس أهل الثقة) لذا فإنهم يطبعون الكافة على احترام السلطة وعدم الخروج عليها، خاصة وأن سلطة الدولة فى هذا النمط من الحياة مقيدة[٤].

وتقدر الثقافة التدرجية نمط الأداء البارع فى الأعمال الحياتية، وكذا قيمة التضحية بالذات الأصغر لتحقيق الذات الأعظم، فالتدرجية ليست فى بناء السلطة فقط[٥] بل وفى المكانة الاجتماعية أيضاً، فهى جماعة قوية رغم أن شبكة قيودها ضعيفة[٦].

وتتفق التدرجية مع الثقافة السياسية التقليدية التى قسم إليها دانيال الازار[٧] التنوع الثقافى (مع : الفردية – الأخلاقية) فى كل ولاية من الولايات

---

(١) نظرية الثقافة، ص٤٦ .

(٢) نظرية الثقافة، ص٤٨ .

(٣) ذات المصدر، ص١١٨ .

(4) Elster, Jon : Op. Cit. p.413.

(5) Pye, Lucian W.: The Mandarin and the Cadre; China's Political Cultures . Ann Arbor, Univ. of Michigan Press,1988, p.58-59.

(٦) نظرية الثقافة، ص ٤٢٦ .

(7) Elazar, Daniel J. : American Federalism; a View form the States. New York, Crowell, 1966, p.99

المتحدة الأمريكية حيث غلب ثقافة من الثلاثة فى كل ولاية منها، وحيث جعلها ثقافة فرعية، حيث يقول أن ذلك يسمح بوجود مجتمع تدرجى حقيقى لأنه جزء من الطبيعة المنظمة للأشياء، كما يتوقع من النخبة الاجتماعية أن يمارسوا دوراً متميزاً وميهمنا فى الحكومة.

ويستطيع التدرجيون تبرير فصل الأفراد فى مستويات ومواقع متدرجة[1] ولعل الثقافة المدنية البريطانية الخضوعية؛ هى خير مثال لنمط الحياة أو للثقافة التدرجية المدنية[2].

جدول : (١) يرشد إلى آثار الترابط بين أنماط بعض البيئات وصور حياة الناس على اختلاف الزمكان (راجع المتن)

أنماط البيئات / أشكال حياة الناس	(١) الغنية (الكريمة)	(٢) الجوع والفقر (الزائلة)	(٣) الضعف (المتقلبة)	(٤) الارتحال (المتسامحة)	(٥) العمل والاجتهاد (المرنة)	(٦) الصعوبة الدائمة (العنيدة)
أ-المعتزلة	أ/١	أ/٢	أ/٣	أ/٤	أ/٥	أ/٦
ب-الفردية	ب/١	ب/٢	ب/٣	ب/٤	ب/٥	ب/٦
ج- المساواتية	ج/١	ج/٢	ج/٣	ج/٤	ج/٥	ج/٦
د- القدرية	د/١	د/٢	د/٣	د/٤	د/٥	د/٦
هـ - التدرجية	هـ/١	هـ/٢	هـ/٣	هـ/٤	هـ/٥	هـ/٦

هذا وتترابط أنماط البيئات مع صور حياة الناس بحدة وباستمرار (جدول ١) بحيث يصبح أمامنا عدد ثلاثين نموذجاً، وهى حالات يمكن تصورها نظرياً وإمبيريقيا من واقع العرض العام لتفاصيل الأنماط الست للبيئات المختلفة (١-٦) مع ربطها بالأشكال الخمس لحياة الناس (أ -هـ)، ثم تطبيق ذلك على بعض المجتمعات (الدول) المختارة من القارة الأفريقية.

---

(١) نظرية الثقافة، مصدر سابق، ص ٤١٣ .

(٢) ذات المصدر، ص ٤٠٣ .

والحقيقة أنه مع التقدم التكنولوجى الهائل الذى يحيا فيه البشر حالياً فى كل أركان المعمورة، فإنه لا مجال للدفاع عن فكرنا بأنه بعيد عن الحتم البيئى، ذلك الذى أصبح الفرد البشرى وتنظيماته الاجتماعية والمجتمعية المختلفة تتحكم فى تشكيل أوجه وصور حياته المتباينة فى كل زمان ومكان.

كل ذلك بهدف خلق توافق وانسجام - قدر المستطاع - بين الموارد المتاحة وبين الاحتياجاتْ الحياتية، فهذه المعادلة بصورها المتعددة هى التى تتحكم فى اقتصاد وسياسة الجميع أفراداً ومجتمعات، ومنها وعنها تخرج كل صور الحياة الممكنة والمحتملة، وهى تلك التى يلاحظ عليها التباين داخل المجتمعات (الدول) أكثر منها بين المجتمعات أى بين الدول بعضها وبعض، كما سيلاحظ ذلك بكثرة فى المجتمعات الأفريقية المختارة محل هذه الدراسة وكلها من المجتمعات النامية.

هذا والملاحظ أن البيئة الجديدة البكر (إن وجدت الآن فى عالم اليوم شديد الاختلاط والتغير) يصعب التنبؤ بأحداثها إذ أن كائناتها الحية كلها تقريباً تتصف بالانتهازية حيث تعتمد فى الحياة على غيرها؛ فهى إذن طفيلية السمات (وقد أطلق عليها رمز .R) وهى فى حياتها وتغيرها وتطورها تسعى للوصول إلى مجتمع القمة شديد النضج مورفولوجيا وفسيولوجيا (وقد رمز له K) فهذا التحول المنشود والإمبريقى هو الحادث باستمرار فى كل البيئات ولكن على درجات متفاوتة ومتباينة من السرعة والدقة والاتقان.

فأصحاب النمط التقليدى R يفتقدون التخصص ولكن انتهازيتهم مدفوعة بمعدل نموهم السريع، حيث تتجه استراتيجيتهم إلى التغير السريع من خلال التجربة والخطأ، وحيث يصبغون شكل بيئتهم حتى تصبح أكثر ملاءمة لأصحاب الاستراتيجية K (القمة) وهى تلك التى تتميز بالتخصص المتزايد وبمعدل النمو المنخفض، فتصبح بيئتهم أكثر إنتظاماً وأكثر اتساقاً وأكثر اعتماداً على التبادل والتعاون المشترك.

هذه الفكرة تتواجد بصورها السريعة والبطيئة والمفاجئة فى عالم الجمادات وعالم الإحياء على حد سواء، بل أنها تصدق على النظم والأنساق البشرية أيضاً وفى كل الأمكنة والأزمنة على حد سواء، أى أن كل أنماط البيئات وكل أشكال وصور الحياة تمر بها ولا فكاك ولا مهرب من ذلك، حيث أن الوجود كله (الماكرو- الميكرو) فى تفكك دائم ثم فى إعادة بناء مستمر(*)؛ وهكذا إلى أن يأذن الله بغير ذلك.

تطبيقات مختارة أفريقية

تظهر فى المجتمعات (الدول) الأفريقية - شأنها شأن كل دول ومجتمعات العالم المختلفة الأخرى - خليط وتعدد من كل الطوائف والجماعات ومن قبل ذلك السلالات، لذلك ليس غريباً أن يوجد التباين والتعددية فى المجتمع الواحد فى ذات الآن، ويتجلى هذا فى أنماط حياة كثيرة من التى سبق ذكرها وأكثر.

ولاشك أن الفكر الوظيفى والبنائى (الفسيولوجى والمورفولوجى) كان وما زال - له دور فى مجالى البيئة والانثروبولوجيا من خلال البحوث والدراسات الجغرافية والاجتماعية ؛ اتفق على ذلك الجميع تقريباً مع تباين فى التركيز على إحداها عند باحث أو آخر، فبينما اهتم مالينوفسكى بالاتجاه النفسى - العضوى للوظيفية، نجد رادكليف بروان يركز على الاتجاه الاجتماعى للوظيفية، وهكذا يتكامل فكر الجميع لإعطاء صورة عن نمط الحياة السائد على المستوى العام (الكبير Macro) أو الخاص (الصغير Micro) كما سبق القول، ويشترك الكل فى نماء واستمرارية نمط أو أنماط الحياة (الثقافة أو الثقافات) التى يتخيرها الفرد أو المجتمع فى فترة زمانية معينة.

والجدير بالذكر أن التباين بين أنماط الحياة (الثقافات) يتركز أساساً بين المجتمعات الكبيرة أى بين الدول القومية رغم وجود العديد من التنوع الثقافى

(*) هذا الدرس تعلمناه من العلوم الفلكية .

داخل الأمم والدول وهى غالباً أكبر عدداً أو أكثراً تبايناً[1]، ويتجلى ذلك بوضوح وينعكس على مستوى المعيشة وأنماط الحياة اليومية.

والقارة الأفريقية هى القارة الوحيدة التى تقسم أرضها مناصفة بين نصفى الكرة الأرضية[2]، فهى بهذا الوضع الجغرافى (والأنثروبولوجى) كانت صالحة لتكون بيئة بحث وتجارب علمية عديدة ليس أقلها البعثة التى قادها آرثر إدنجتون(*) عام ١٩١٩ إلى جنوب أفريقيا لإثبات صحة نظرية النسبية العامة حيث رصد إنحناء شعاع الضوء بفعل الجاذبية، وكذا شهدت أفريقيا تحرك أعرق سلالاتها (الكيبوانيون) Capoids من أواسط الصحراء الكبرى إلى أقصى جنوبها[3] بل ما زالت تشهد أرضها وناسها الكثير من الأحداث السياسية نتيجة الصراعات التى تغذيها قوى خارجية عديد تعمل على إشاعة الفساد والأفساد(**) فيها.

وتكثر فى القارة الأفريقية دولا (ومجتمعات) متعددة الأعراق (الإثنيات) وذلك بحكم تعدد الأعراق والإثنيات فى هذه القارة، لدرجة كبيرة حيث تربو عدد قبائلها على الألف قبيلة وعدد اللغات التى يتحدث بها سكان هذه القارة ثمانمئة لغة ولهجة[4].

ولقد شهدت القارة الأفريقية بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) كثير من الحركات القومية أشبه بتلك التى شهدتها القارة الأوربية بعد الحرب

(1) Dogan, Mattei (ed.) : Comparing Pluralist Democracies. Boulder, Westview Press, 1988, p.2-3 .

(٢) فاروق عبد الجواد شويقة : أفريقيا وحوض النيل. ط٢، أ٢ . القاهرة، دار روتابرنت، ١٩٨٦، ص ١-٣ .

(*) أستاذ كرسى بلوم للفلك والفلسفة التجريبية فى جامعة كامبردج. والسكرتير الأكاديمى للجمعية الفلكية الملكية البريطانية ومدير مرصد كامبردج في العقد الثانى من القرن الماضى (العشرين).

(٣) فاروق عبد الجواد شويقة : المجموعة الكيبوانية الأفريقية. مجلة الدراسات الأفريقية . ع٦، ١٩٧٧، ص ١١١-٢٠٨ .

(**) حيث نجد نيجيريا أولى دول العالم فسادا، ولا ينافسها إلا أذربيجان (لاحظ أنهما دولا نفطية غنية جدا ومسلمة ! يا للحسرة !) .

(٤) فاروق عبد الجواد شويقة : أفريقيا، مصدر سابق، ص ١١٠

العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) وهى تلك التى كانت إرهاصاتها تبدو للعيان فى البلقان تلك الببيئة الفسيسفائية[١] أنثروبولوجيا وجغرافيا، وهناك كثير من مناطق أفريقيا وبعض أقطارها (رواندا - بوروندى - تشاد - نيجيريا - السودان... الخ) قد شهدت العديد من جرائم الحرب والعدوان وهى التى تخضع لإجراءات المحكمة الجنائية الدولية(*). ويبدو أن ذلك كان نتيجة تشجيع حكومات دول العالم الغربى المتقدمة لكثير من الجماعات والنظم الأفريقية على الدخول فى صراعات وحروب داخلية وخارجية عديدة، وذلك بهدف بيع وتجربة الكثير والحديث من الأسلحة والذخائر، وأيضاً كى تحصل على ثروات وخيرات القارة بطرق وأساليب سهلة وبأسعار زهيدة بخسة حيث أن المضطر يركب الصعب.

حدث هذا فى كل دول ومجتمعات القارة السوداء سواء شمال أو جنوب الصحراء، (جدول ١)، وحدث هذا أيضا منذ بداية استغلال دولها وحتى اليوم ويبدو أن هذا سيستمر أيضاً فى المستقبل.

---

(1) Wilkinson, H.R. : Maps and Politics; A. Review of the Ethnographic Cartographic of Macedonia. Liveropool, Univ. Press, 1951, p.163.

(*) وقعت اتفاقية إنشائها فى روما بتاريخ ٧ من يونيو سنة ١٩٩٨ .

جدول ٢ - توزيع قوى العمل من الجنسين على بعض الحروف (أنماط الحياة المعيشية) فى بلدان مختارة من القارة الإفريقية

المجتمع	جملة قوة العمل من الجنسين (عشر سنوات فأكثر بالألف)	عدد المشتغلين من الجنسين من قوة العمل على الحرف (بالألف)											
		الزراعة والصيد والرعى	التعدين	الصناعة	البناء والنشر	كهرباء طاقة مياه	التجارة	المواصلات والتخزين	الخدمات المالية	الخدمات الاجتماعية	خدمات أخرى	غير محدد	عاطلين
اليوبيا (*)p.459	٢٤٣٩٦ (١٩٩٥)	٢١٦٠٥,٣	١٦,٥	٣٨٥	٦١,٢	١٧,١	٩٣٥,٩	١٠٣,٢	١٩,٥	١٢٥٢,٢			
بوركينا فاسو (**)p.230	٤٦٧٩ (١٩٩١)	٤٢٩٤	٢,٥٩	٥١,٦٩	١١,٠٢	٣,٨٤	١٢٠,٣١	١٥,٠٤١	٢,٠٨	١١١,٥٦			٤٩,٨٢
لزائيا (*)p.1098	٥٧٤٧,١ (١٩٦٧)	٥٢١٦,٥	٥,٠٢	٩٨,٨٦	٣٣,٠١	٥,٨٦	٧٨,٨٠	٤٦,٨٣			٢٠٨,٥	٥٣,٧	
الجزائر (***)p.333	٥٣٤١,١ (٦-فأكثر) (١٩٨٧)	٧٢٤,٧	٦٧,٨١	٥١٢,١	٦٨٩,٥٩	٤١,٨	٣٩١	٢١٦,٣٤	١٤٣,١٨			٢٣٣	(١٦-٦٤سنة) ١١٤,٣
جنوب أفريقيا (*)p.104	١٤٣٥٦ (١٥- فأكثر) (١٩٩٥)	١٢٩٥	٤٧١	١٥٢٦	٤٨٣	٩٥	١٧٦٩	٥٢٠	٦٥٤	٣١٣٧		٢٠١	٤٢٠٤
السودان (*)p.1057	٦٣٤٣,١ (١٠ - فأكثر) (١٩٨٣)	٤٠٢٨,٧	٦,٥	٢٦٦,٧	١٣٩,٣	٤٣,٧	٢٩٤,١	٢١٥,٥	٢٠,٦	٥٥٠,٤			٥٩٢,٨
زمبابوى (*)p.1197	٤٣٠٦,٨ (١٥-فأكثر) (١٩٩٤)	٢٨٠٤,٨	٦٨,٨	٢٢١	٨٦	١٣,٨	١٣٠,٢	٧٨,٦	٣٢,١	٦٤٤,٥		١١,٥	٢١٥,٥
ليبيا (***)p.857	اللليبيون ١٠٩٢,١ غير ٣١,٩ (١٩٩٦)	٢١٩,٥	٣١	١٢٨,٥	١٧١	٣٥,٥	٧٣	١٠٤	٢٢		٤٣٩,٥		
مصر (***)p.449	١٧٢٦١,٢ (١٢-٦٤ سنة) (١٩٩٥)	٥٢١٥,٦	٤٠,٧	٢١٨٣,٥	٩٦٧,٦	١٦٦,٨	١٥٨٧,٧	٩٠٧,٦	٢٨٢,٧	٣٩٩٠,٨		١,٢	١٩١٧
نيجيريا (*)p.840	٣٠٧٦٥,٥ (١٤-فأكثر) (١٩٨٦)	١٣٢٥٩	٦,٨	١٢٦٣,٧	٥٤٥,٦	١٣٠,٤	٧٤١٧,٤	١١١١,٩	١٢٠,١	٤٩٠٢,١		٣٤٤,٩	١٢٦٣,٦

(*) Africa South of the Sahara 2000. 29ed. London, Europe Publication

(**) كانت تسمى من قبل فولتا العليا بإعتبارها تشغل أعالى حوض نهر الفولتا فى غرب أفريقيا ، ولكن تغير الاسم (١٩٩٠) إلى بوركينا (وتعنى الشرفاء بلغة قبائل الموسى) و فاسو (وتعنى أرض بلغة قبائل الماندنجو) .

(***) The Middle East and North Africaa 2000. 46ed . London, Europa Publication

مصـــر:

أمـا مـصـر فـهـى أقـدم وأعـرق مـجـتـمـع مـركـزى عـرفـه الـتـاريـخ حـيـث فـرضـت خـصـوصـيـة الـبـيـئـة الـطـبـيـعـيـة الـمـكـونـة من أرض زراعـيـة (الـوادى والـدلـتـا) مـحـاصـرة بالـصـحـراء والـمـنـاخ الـقـاسـى شـديـد الـجـفـاف والـحـرارة، مـمـا أدى إلـى الـحـاجـة إلـى سـلـطـة مـجـتـمـعـيـة تـنـظـم الـحـيـاة الـيـومـيـة لـلـمـجـتـمـع والأفـراد ، خـاصـة تـنـسـيـق تـوافـر الـمـيـاه الـلازمـة لـلـزراعـة تـأمـيـنـاً لاسـتـمـرار حـيـاة الـمـجـتـمـع والأمـة ومـسـتـقـبـلـهـا ، فـكـل هـذة الأحـوال الـطـبـيـعـيـة فـرضـت عـلـى حـيـاة الـنـاس نـمـط حـيـاة مـعـروف.

وتـكـونـت الـقـومـيـة الـمـصـريـة؛ هـذه الـسـبـيـكـة الـسـلالـيـة والأنـثـروبـولـوجـيـة الـفـريـدة عـلـى مـدى أكـثـر من سـتـة آلاف سـنـة مـمـا يـجـعـلـهـا أعـرق الـحـضـارات الأفـريـقـيـة؛ هـذه الـقـارة الـتـى شـهـدت بـدايـة ظـهـور وتـطـور الـبـشـريـة والإنـسـانـيـة[1] عـلـى كـوكـب الأرض.

هـذه هـى الـظـروف الـمـوضـوعـيـة - بـاخـتـصـار شـديـد - الـتـى عـمـلـت عـلـى تـكـويـن مـصـر الـجـيـوتـاريـخـى الأنـثـروبـولـوجـى، بـل أكـاد أجـزم أن هـذا هـو قـدرهـا الـمـسـتـقـبـلـى خـاصـة إذا أدخـلـنـا ظـروف الـمـوضـع Site وقـصـوره عـن اسـتـيـفـائـه بـمـتـطـلـبـات الـسـكـان الأسـاسـيـة (الـقـمـح) والـتـرفـيـهـيـة (الـتـكـنـولـوجـيـة)، وكـذا ظـروف الـمـوقـع Situation الـتـى تـجـذب الـطـامـعـيـن من أصـحـاب الـقـوى الـعـالـمـيـة طـلـبـا لإحـكـام الـسـيـطـرة عـلـيـهـا حـيـث أنـهـا ومـا يـحـيـط بـهـا من جـيـران أقـربـيـن يـمـثـلـوا بـؤرة ومـركـز الـعـالـم (نـظـريـة مـاكـيـنـدر ١٩٠٤ Mackinder, H. ، ونـظـريـة سـبـكـمـان ١٩٤٤ Spykman, N.) .

هـذا وقـد بـلـغ عـدد سـكـان مـصـر (يـنـايـر ٢٠٠٢) ٦٧ مـلـيـون و٨٨٠ الـف نـسـمـة[2].

ولـعـل فـى الإحـصـاءات الـتـالـيـة (نـشـرهـا الـجـهـاز الـمـركـزى لـلـتـعـبـئـة الـعـامـة والإحـصـاء) مـا يـوضـح كـثـيـر من الأمـور ذات الـدلالـة فـى هـذا الـسـيـاق مـحـل الـعـرض (جـدول ٢) .

---

(١) فـاروق عـبـد الـجـواد شـويـقـة : أفـريـقـيـا وحـوض الـنـيـل. ط٢ أ. الـقـاهـرة، دار روتـابـرنـت ١٩٨٦، ص٧٧ .

(٢) إيـهـاب عـلـوى : الـمـعـلـومـات مـتـاحـة لـلـجـمـيـع. الأهـرام ، الـثـلاثـاء ٢٠ من أغـسـطـس سـنـة ٢٠٠٢، ص١٧ .

جدول ٢ - بعض البيانات الإحصائية الديموجرافية (مصر) (١)

إجمالى عدد السكان (مليون نسمة)٢٠٠٢	٦٥,٩٦	منهم إناث	٣٢,٢	ومنهم ذكور	٣٣,٧٦
إجمالى عدد السكان (مليون نسمة) ١٩٩٧	٥٩,٤٤	منهم إناث	٢٩,٠٦٠	ومنهم ذكور	٣٠,٣٨
توزيع نفقات الأسرة المصرية	الغذاء	المسكن	الانتقالات والاتصالات	السجاير	الأثاث
٪	٣٨,٨	١٣,٨٢	٧,٦٢	٢,٢٨٢	٢,٧٧

ويغلب على نمط الحياة فى مصر ؛ العشوائية حيث أن الاستهلاك يسبق الدخل، وحيث يكثر الكلام ويقل الفعل والعمل، وحيث يتحول نمط السكن والتعليم والاستشفاء من النظام والنظافة والتنظيم تدريجياً إلى الفوضى والعبث واللامبالاة، لماذا وكيف يعالج الأمر؟ باختصار شديد يتركز العلاج فى خلق الانتماء وحب الوطن وفى خلق الوقاية المجتمعية وفى تطبيق الثواب والعقاب العادل السريع.

ورغم ما يبدو من ضغوط التهديد بتقليل المعونات الأمريكية السنوية أو حتى إيقافها فإن مصر مازالت تواجه المواقف التى تثار من وقت إلى آخر بحكمة وسياسة واعية أمينة مشهوراً ومشهوداً عنها ، مما يجعلنى مطمئناً للمستقبل، حتى وأن سجى الليل أحياناً وطال، لذا يجب أن يعتمد المجتمع المصرى على نفسه، حيث يمكن بالتنظيم المخلص البناء والتنفيذ الأمين لتخطى كل العقبات، ولنبدأ أولاً بالعقبة الاقتصادية مع العقبة الديموجرافية فهما مترابطتان أشد الارتباط.

ولما كان الاقتصاد العالمى يقوم حالياً على سوق عالمية واحدة، حيث يتجه الإنتاج فى هذه السوق للتصدير أساساً وليس للاستهلاك المحلى، أى أن كل الإنتاج يكون معداً للتصدير من حيث الجودة والسعر والقابلية للمنافسة فى عالم أصبح مفتوحاً بعد اتفاقيات الجات.

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء : الأهرام، الثلاثاء، ٩ يوليو ٢٠٠٢، ص٢ .

فهـل المنتجـات فـى مصـر مستعـدة لذلك، إننا إذا أدخلنا مميزات الموضع (البيئـة) وهـو المسئول - مع أفراد المجتمع - عن المنتجات الاقتصادية من سلع وخدمـات ومـعلومـات، إذا أدخلنا الموضع فى متصل مع الموقع وهو ذلك العطاء الجغرافى المركز فى كونه حلقة الصلة والوصل بين أماكن محيطة تحتاج للعبـور والمرور، فـهـذا المتـصـل "الموضـقع / الموقـضع" يعطى مـسـتـوى القـوة الاقتصـادية / السـياسية لمصر (و/ أو غـيـرها) ومـا أظن أى دولة / مجتـمع إلا ويكافح فى سبيل زيادة قـيـمة هذا المتصل بإستـمرار دائماً فى زمن السلم والحرب على السواء.

السودان :

يمثل سودان وادى النيل كبرى وأغنى الوحدات السياسية الأفريقية فى حالة حسن التدبير والتنفيذ، ولكنه تعرض مثله مثل غيره من الدول الأفريقية إلى الإستغلال بعد الإستقلال، فكان ماكان من مشكلة الجنوب التى مازالت تستنزف خيرات البيئة وتحطم الحياة اليومية لكل أبناء البلاد فى الجنوب والشمال والشرق والغرب والوسط بل وفى المهجر.

وخيراً فعلت دول الجوار من مصر وليبيا وأثيوبيا وكينيا وأوغندا بل ودول الصداقة (ولا أقول أصحاب الصدقة) السعودية والاتحاد الأوربى والولايات المتحدة الامريكية وغيرها، تلك التى تقدم المعونة والمشورة لحل هذه المعضلة التى آذت المجتمع السودانى من الأعماق وهددت مستقبله الأنثروبولوجى (شكل ٣).

ولعله من أوجب الواجب على أبناء وسياسي السودان وعلى محبيه، ثم على حكومة السودان ؛ العمل التطبيقى الأمبريقى لحل المشكلة ثم الانتقال للانطلاق لتنمية البلاد بكل أقاليمها وليشترك الجميع (جميع القبائل والثقافات والأديان) فى تقاسم الحقوق والواجبات بالعدل والقسطاس.

وليكن تقدير دانفورث[1]، أو أفكار ميلاد حنا[2]، أو نظرات السيد فليفل[3] أو غير ذلك من مشروعات، أو لتكن كلها جميعاً أمام السياسيين ورجال السلطة الحالية والمستقبلة أمثال الفريق البشير والدكتور قرنق والسيد الصادق المهدى وغيرهم حتى يعملوا على تطبيق المناسب منها فى الوقت والمكان الملائم متوخين مصلحة وحدة السودان (الأرض والناس) وتنميتها.

شرق القارة :

تكثر وتنتشر فى الصومال وحتى شمال كينيا شبه الصحراء، حيث لا تتعدى الحياة النباتية الحشائش وإذا ظهرت الأشجار تكون قصيرة وجافة ومتناثرة، لذا تعتمد الحياة البشرية على الرعى وما يتصل بها من تجارة داخلية وخارجية.

فمنطقة القرن الأفريقى خاصة الصومال شهدت منذ الانقلاب الذى أطاح بالرئيس سياد برى عام ١٩٩٥ تحللا للسلطة بحيث أصبحت البلاد مجتمعا بلا دولة stateless society حيث عاد القهقهرى؟! مما أمكن لتنظيم القاعدة - كما يقال - أن يجد له مرتعا خصبا فيه أشبه بأفغانستان، وأخيراً بعد طول تجاهل من عالم العولمة عالم الغرب، وجهت الولايات المتحدة الأمريكية، أنظار المنظمة العالمية

---

(١) جون دانفورث سيناتور أمريكى بعثه الرئيس بوش (الإبن) لدراسة مشكلة جنوب السودان حيث قدم تقريراً بتاريخ ٢٦ أبريل ٢٠٠٢ ناقشته لجنه العلاقات الدولية بمجلس النواب الأمريكى فى ٥ يونيو ٢٠٠٢، وكان هذا بداية لسلسلة اجتماعات ماشاكوس فى كينيا وذلك فرضا للسلام فى عصرنا هذا الذى هو عصر السلام الأمريكى Paxa Americana .

(٢) ميلاد حنا مفكر قبطى (=مصرى) مهتم بالسودان وله اجتهادات وتوصيات قيمة نشرت فى جريدة الأهرام القاهرية على حلقات معظمها يوم الثلاثاء خاصة منذ عام ألفين وحتى اليوم ، وله اجتهادت قيمة عن مساهمة المسيحيين العرب فى الترابط الثقافى بين الشرق والغرب خصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة الأمريكية.

(٣) السيد على أحمد فليفل أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر وعميد معهد البحوث والدراسات الأفريقية جامعة القاهرة (١٩٩٩-) وهو مهتم بالشأن السودانى حيث عمل على استضافة السيد الصادق المهدى لإلقاء محاضرات متعددة، ثم بعقد حلقات نقاش وندوات علمية نظمها المعهد أو أحد أقسامه حيث كان آخرها ندوة قسم التاريخ "مستقبل السودان فى ضوء التغيرات الأخيرة" والتى انعقدت يومى الثلاثاء والأربعاء ٢٤-٢٥ من ديسمبر ٢٠٠٢، والتى اشترك فيها ٢٣ باحث ومحاضر بأوراق عمل متخصصة.

للهجرة IMO نحو إعداد بعض الأسر والجماعات الصومالية للهجرة للولايات المتحدة (نحو أحد عشر ألف نسمة) قبل أن تؤدب الباقين فى الوطن الصومالى كما جرى فى أفغانستان تمهيداً لتكوين سلطة حليفة وعميلة يطمئن لها الغرب، كما هو حادث وجارى فى سائر الأقطار المارقة - من وجهة نظرها - فى عالم اليوم.

والغريب أن كينيا - رغم غناها الطبيعى - مدرجة حالياً ضمن الدول المتداعية أو الآيلة للسقوط فى أفريقيا نتيجة فشلها فى تطبيق شروط الإصلاح الاقتصادى التى يفرضها صندوق النقد والبنك الدوليين؛ مما تسبب فى انخفاض معدل النمو الاقتصادى ليصل إلى - ٤ , ٠ ٪ وهو أقل مستوى تشهده البلاد منذ الاستقلال أى منذ عام ١٩٦٤، وقد انعكس هذا على مستوى المعيشة والأمن والاستقرار الاجتماعى اليومى مما جعل مثلث الرعب المكون من الفقر والمرض والبطالة يخيم على الحياة هناك(١).

وقد عانى عشرة ملايين ناخب تقدموا للأدلاء بأصواتهم (يوم الجمعة ٢٠٠٢/١٢/٢٧) في انتخابات اختيار رئيس جديد للدولة بعد الرئيس دانيال آرب موى(*) حيث تتفاوت الفروق بشكل واضح من الملابس فقط بين رجال السلطة وبين عامة الشعب (من عرض صور التليفزيون الإخبارية) وهذا يعكس التباين الكبير بين أنماط الحياة الشائعة فى مجتمعات معظم الدول الإفريقية.

نيجيريا :

نيجيريا عملاق أفريقى جغرافياً وأنثروبولوجيا من نوع فريد متميز، وقد إنعكس ذلك على حياة الناس هناك بوضوح ظاهر، ومع أن كل إقليم فيها له طابعه وسماته الخاصة جداً، إلا أن الجميع قد تأثر بظهور وإنتاج وتنامى إستخراج البترول .

---

(١) تهانى صلاح : الفقر والمرض والبطالة مثلث الرعب فى كينيا. الأهرام، السبت ٢٠٠٢/٨/١٧، ص٦ .

(*) تم انتخاب الرئيس موای كيباكى زعيم تحالف المعارضة رئيسا للبلاد (الأهرام الثلاثاء ٣١ من ديسمبر ٢٠٠٢، ص٤) .

ولكن الغريب أنه رغم تزايد إنتاج معظم الدول الأفريقية المنتجة للبترول منه، خلال العقد الأخير من القرن العشرين وأوائل هذا القرن الحادى والعشرين حيث بلغ إنتاج نيجيريا منه ٢,٧ مليون برميل يومياً وثمنه يمثل ٩٥٪ من الدخل القومى، إلا أن الملاحظ أن تزايد الدخل بهذه الصورة لم يؤد إلى تغير نمط حياة السكان والأهالى فيها شأنها فى ذلك شأن كل المجتمعات الأفريقية المنتجة للخيرات التى تخرج إلى الخارج.

ويصاحب ذلك دائماً أوجه صراع كثيرة يصاحبها دائما فساد وحروب(*) وقلائل وانقلابات سياسية وعسكرية واغتيالات للرؤساء(**)والقادة والمسئولين، وغالباً ما يكون خلف ذلك أيادى خفية مدفوعة من الخارج .

فقد حاول الزعيم بولايج الذى كان وزيراً للعدل أن يرشح نفسه لرياسة نيجيريا ممثلاً لحلف بان –يوربا Pan- Yourba ولما كان يرفض الامتيازات الممنوحة إلى شركتى شفرون Chevron واكسون موبيل Exxon Mobil للبترول فقد اغتاله مجهول يوم ٢٣ ديسمبر سنة ٢٠٠١(١)، فإذا عرفنا أن كوندوليزا رايس(***) مستشار الأمن القومى للرئيس بوش الإبن كانت رئيسة شركة شفرون عرفنا فعلاً مدى أثر العولمة وسيطرة القوة الجبارة التى خرجت من عقالها بعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ على الحرية وأنماط الحياة فى العالم .

الجنوب الأفريقى :

كان – ومازال – الجنوب الأفريقى محل مطامع الدول الاستعمارية الأوربية منذ الكشوف الجغرافية وجهود واستبسال المستكشفين أمثال سيسل رودس

(*) مثل حرب بيافرا.

(**) مثل اغتيال الرئيس أحمد وبللو.

(١) ميسان، تيرى : ١١ أيلول ٢٠٠١، الخديعة المرعبة ترجمة سوزان قازان ومايا سلمان. دمشق، دار كنعان، ٢٠٠٢، ص ١٢٠

(***) إذاعت (صباح الخميس ٢٦ من ديسمبر سنة ٢٠٠٢) أنها مرشحة كى تكون نائب الرئيس بوش الإبن عام ٢٠٠٤ بدلاً من النائب الحالى ديك تشينى، وبذلك تكون أول سوداء تتولى هذا المنصب، مثلما كانت أول سوداء تولت منصب مستشار الأمن القومى فى USA .

الذى دخل فى عقبة مغامرون كثيرون استولوا على الأراضى وكونوا مستعمرات كثيرة استقلت أخيراً مكونة دولا مازالت تعانى الكثير والأمرين من بقايا ومخلفات الاستعمار.

ويبدو أن مجتمع جنوب أفريقيا الأوربى قد جاء مكونا مثل مجتمع الولايات المتحدة الامريكية من مجتمع ثيوقراطى إذ أسسه طهريون فروا من عدم رحمة وتعصب العرش البريطانى[1] وسائر العروش الأوربية منذ القرن السابع عشر؛ فكان هذا بداية الفسيفسائية الانثروبولوجية التى يرجع إليها كل الظواهر الاجتماعية والمجتمعية السائدة هناك.

ويوجد فى مجتمع جنوب أفريقيا جماعة الكويكرز Quaker[*] (الصاحبية) الذين يزاولون نمط الحياة الفردية وهم ناجحون اقتصادياً وسياسياً لدرجة متميزة نظراً لمزاولتهم ثقافة التنظيم الذاتى الفردى مع ما يصاحبه من حافز فطرى دافع.

ولقد شهدت زيمبابوى خلال عام ٢٠٠١ صراعاً عنيفاً بسبب تشجيع الرئيس موجابى الأهالى الوطنيين الأفارقة، وغالبيتهم من عمال الزراعة على استعادة أراضيهم الزراعية وهى تلك التى كان قد استولى عليها الأوربيون البيض، وغالبيتهم من البريطانيين، فكانت هذه الحركة صورة من صور المشروع الاجتماعى الذى يلتف حوله أفراد المجتمع وتدور حوله الحياة اليومية خلال فترة زمانية معينة، وهذا ما حدث هناك حيث أعيد انتخاب موجابى لرياسة البلاد مرة أخرى.

ورغم أن أنجولا تعد سابع دولة فى إنتاج البترول فى العالم حيث تنتج ١,٤ مليون برميل فى اليوم، ورغم أن عدد سكانها لا يتعدون أكثر من ١٢ مليون نسمة بكثير إلا أن نصفهم يعيش تحت مستوى خط الفقر، وكثيراً ما يموت العديد

---

(١) ميسان، تيرى : "ايلول ٢٠٠١ الخديعة المرعبة، مصدر سابق، ص ٦٥ .

(*) جماعة دينية (بروتستانتية) يتميز أعضاؤها بالزهد والتأمل الطويل ومع ذلك فقد تبنوا المذهب الرأسمالى قائلين بأن الأمانة هى أفضل سياسة.

منهم بسبب الجوع، مما يعكس حالة من السوء خطيرة لنمط الحياة اليومية هناك، كل هذا بسبب سوء الإدارة الحكومية وفسادها(١).

وكانت إسرائيل تعاون الثوار (سافيمبى) فى أنجولا ضد الحكومة (دوسانتوس) بالأسلحة والطائرات والطيارين، وأيضاً بالعكس تعاون الحكومات (دى كليرك) فى جنوب أفريقيا العنصرية ضد جموع الشعوب الزنجية، وكان يتم كل هذا بدفع وتشجيع من الولايات المتحدة الأمريكية، وما أظن أحداث جنوب السودان من ثورة وقتال أو من مشروعات مصالحة (المبادرة) أو مؤتمرات مصالحة (أديس ابابا - ماشاكوس) بعيدة عن ذلك.

فكيف تتصرف الدول والمجتمعات الأفريقية إزاء ما تواجهه من مؤامرات تهدد كياناتها بل ووجودها ومستقبلها؟

إن أولى خطوات النجاح والإنتصار هو فى الاتحاد والتعاون المباشر بينها، فإنه ليس من المنطقى أن خطوط المواصلات (بحرية - جوية - الاتصالات - وطبقا لقرارات سياسية سيادية) لا يتم معظمها إلا من خلال المرور على العواصم الاستعمارية السابقة الأوربية والحالية الأمريكية .

لقد أصبح التعاون والتبادل التجارى المباشر (سلعا - خدمات - أفكار) هو السبيل الواعد للنجاح وللمستقبل المتنامى فى كل المجتمعات بصرف النظر عن مكوناتها وعناصرها الأساسية ، ويبدو أن مجتمع جنوب أفريقيا الأوربى، قد جاء مكونا مثل مجتمع الولايات المتحدة من مجتمع ثيوقراطى إذ أسسه طهريون فروا من عدم رحمة وتعصب العرش البريطانى (٢) وسائر العروش الأوروبية منذ القرن السابع عشر ، فكان هذا بداية الفسيفسائية الأنثروبولوچية التى يرجع إليها كل الظواهر الإجتماعية والمجتمعية السائدة هناك.

* * * * *

(١) يحيى غانم : الحروب تتيح للغرب ثروات القارة بأسعار زهيدة ، الأهرام، السبت ٢٠٠٢/٨/١٧، ص٧ .
(٢) ميسان ، تيرى : ١١ أيلول ٢٠٠١ الخديعة المرعبة ، مصدر سابق ، ص ٦٥ .

هذا ويصاحب دائما التخلف ضعف أخلاقى واضح، يظهر فى سلوكيات الأفراد فى الحياة اليومية، ويكثر هذا ويشيع فى سائر أنماط الحياة السابق الإشارة إليها، بل وفى كل التقسيمات والتصنيفات الأخرى، حيث يضعف نمط العمل الجماعى وتزداد العدوانية ويقل الشعور والإحساس بالانتماء المجتمعى بل وأحياناً بالانتماء القبلى والقومى، وغالباً ما يرجع ذلك إلى الإحساس بالوضع المهمش فى البنية الاقتصادية والسياسية فى المجتمع(١)، وكل هذا وغيره كثير من سمات ثقافة الفقر، وهى شائعة فى كل مجتمعات ودول القارة الإفريقية ولكن بنسب وبدرجات متفاوتة.

هذا ويقوم الانتقاء الاجتماعى على أساس تخير السلوك من خلال النتائج وذلك عن طريق أحد ثلاث سبل هى فى ذات الوقت أنماط أساسية : التخطيط الواعى - التقوية السلوكية - الانتقاء البيئى. (٢)

فإذا كان التخطيط يقوم على إدخال النية الواعية فى دائرة التغذية الراجعة بين النتيجة والسبب، وإذا كانت التقوية السلوكية تقوم على الخبرة الذاتية والتعلم، فإن الانتقاء البيئى يقوم على مفهوم هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) حول البقاء للإصلح وهو ذلك الفكر الذى مازال يعد المحور الأساسى لدور الأنثربولوجيا الإيكولوجية.

---

(1) Banfield, Edward C.: The Moral Basis of a Backward Society. New York, Free Press, 1958, p.357

(2) Stinchcombe, Arthur L. : Construction Social - Theories. New York, Horcourt, 1968, p.99.

الخاتمة

البيئة وحياة الناس وجهان لعملة واحدة فهما مترابطان متفاعلان متلازمان أبد الدهر لذا كان صحيحاً ما يقال من أن البيئة هى الموجهه الأولى للحياة، كما أن سلوك الفرد ينم دائماً عن البيئة التى نشأ فيها.

لهذا كانت البيئة مجال اهتمام علوم اجتماعية عديدة، فهذا هربرت سبنسر يرى أن التنمية الاجتماعية تعد نتاجا طبيعياً للتفاعل مع البيئة(١) بمكوناتها المورفولوجية البنيوية ودورها الوظيفى الفسيولوجى، وعليه فإن التطور وهو أساس التنمية فى المجتمعات البشرية يصبح حتمياً وإيجابى النتائج إذا ما كان البشر فى البيئة على مستوى المسئولية الحياتية، وهذا هو سبب تفاوت تقدم حياة بعض المجتمعات البشرية عن الأخرى رغم تشابه البيئة الطبيعية فيهما معاً.

ولكن المحزن أن الحياة تشهد باستمرار كثير من صور الطغيان والظلم مما يؤدى إلى حدوث كثير من صور العنف والعنف المضاد(*) حيث يتضح ان عدم التنسيق وعدم التعاون وكل صور العدم، هى السبب وراء ما يشاهد، حيث يسود فى مجتمعات التخلف؛ العشوائية فى التفكير والسلوك والتصرف بين جميع الطبقات، مما يجعل الجميع لا يجدون أملاً لا فى حاضر ولا فى مستقبل، مما لا يجدون أمامهم إلا الإرهاب مخرجاً من حياتهم فيحدث ما حدث يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة فيستيقظ اللاهى لينتقم من الجميع حتى من نفسه (قوانين الأمن الداخلى فى USA) وهكذا فى العالم .

والحقيقة أن المجتمعات الحرة تلك التى يسود فيها حكم القانون وتداول السلطة وحق النقد، هى محصلة للتداخل المتبادل بين التدرجية والفردية والمساواتية ولعل من أهم المتطلبات الأساسية للديمقراطية هو الرضا بالتخلى عن السلطة فى هدوء عند خسران الانتخابات، فأين نجد ذلك وفى أى البيئات والمجتمعات؟ من أفريقيا بالتحديد مجال عرضنا الإمبيريقى ... لعل لا يطول بنا البحث ولا الإنتظار.

---

(1) Spencer, H. : Principle of Sociology, Vol.1, p.95 .

(*) مثل ما حدث ويحدث بين الفلسطينيين (٣,٥ مليون فى الأراضى المحتلة) والإسرائيليين (أربعة ملايين نسمة) فى إسرائيل، أو من خلل فى مدى تأثير اليهود الأمريكان (٦ ملايين نسمة) فى المجتمع الأمريكى، والمسلمين الأمريكان (٧ ملايين نسمة) فى المجتمع الأمريكى ذاته (USA) فشتان بين فعالية كل منهما.

(٤) (٦) (٥)

منقلبة عنيدة / متسامحة

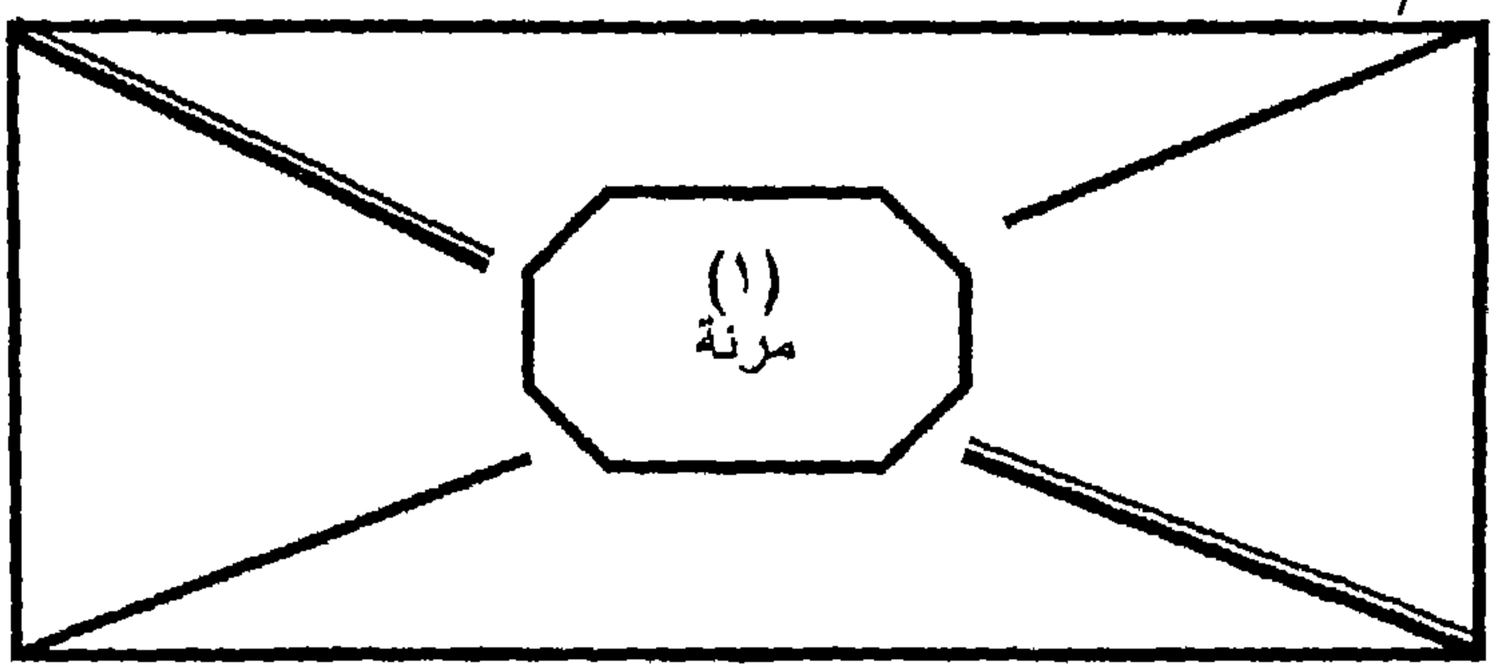

كريمة زائلة

(٢) (٣)

شكل ١- أنماط البيئات

د-القدرية هـ – التدرجية

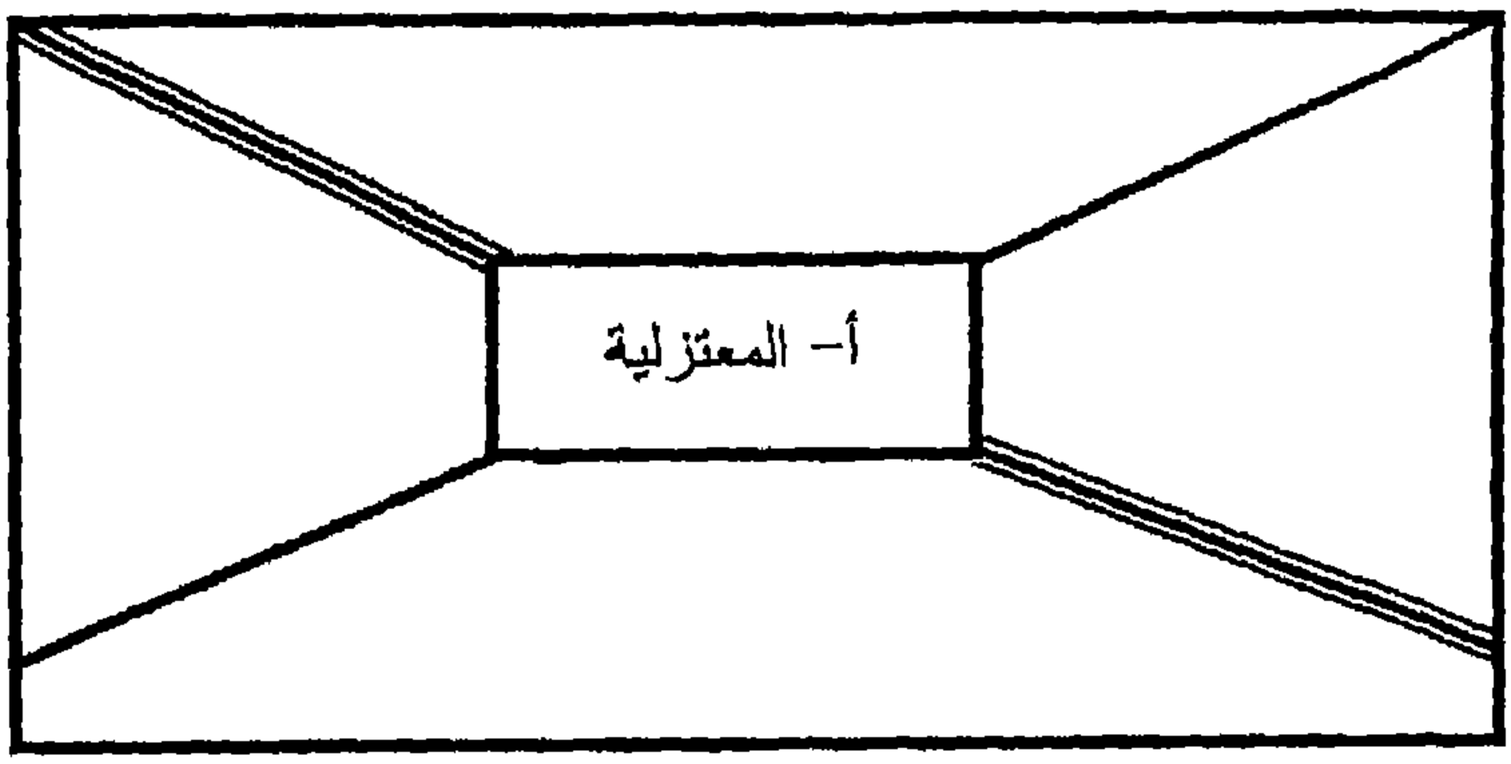

ب– الفردية جـ – المساواتية

شكل ٢- صور حياة الناس

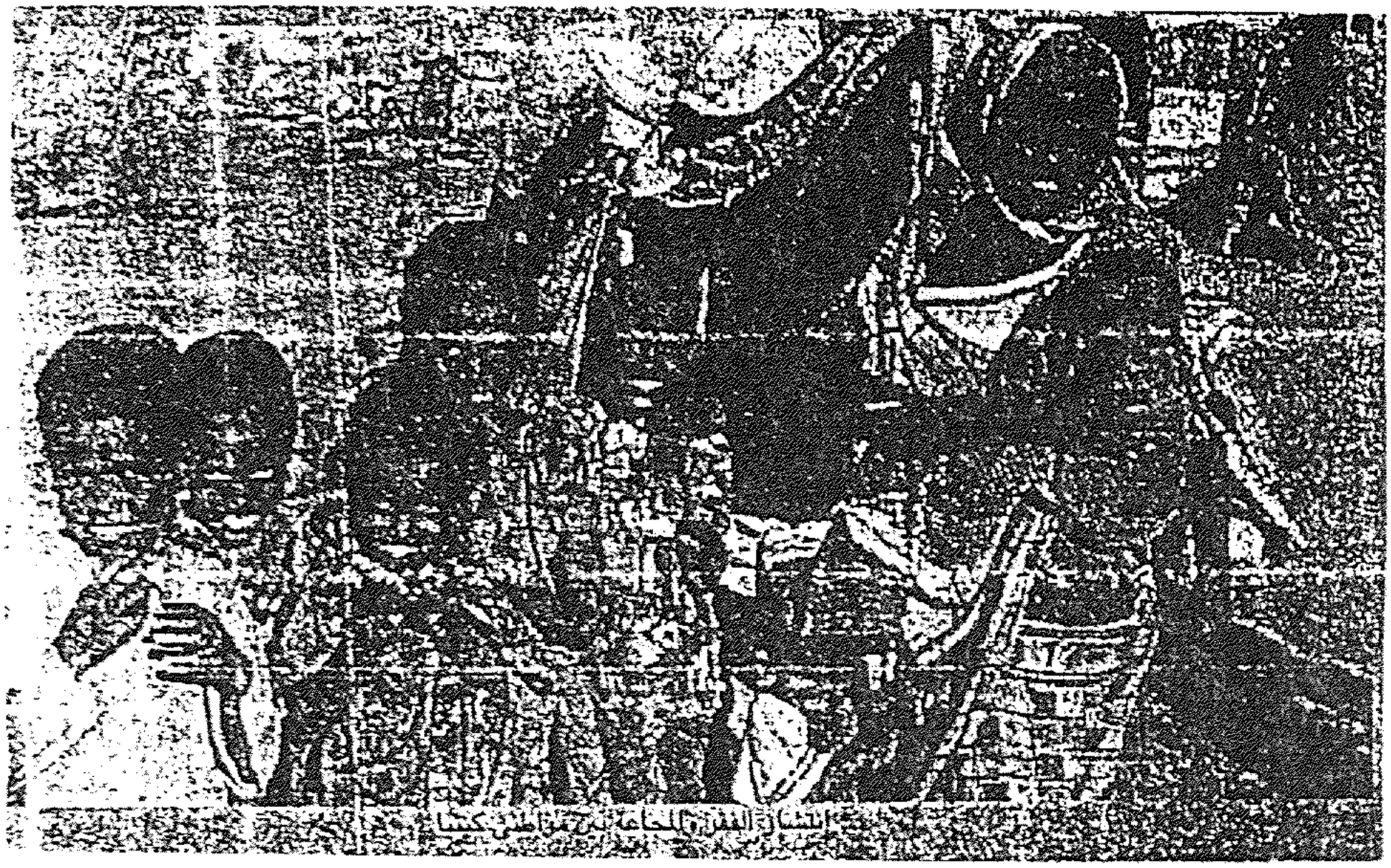

شكل ٣ - كثرة الأطفال فى الأسرة جنوب السودان

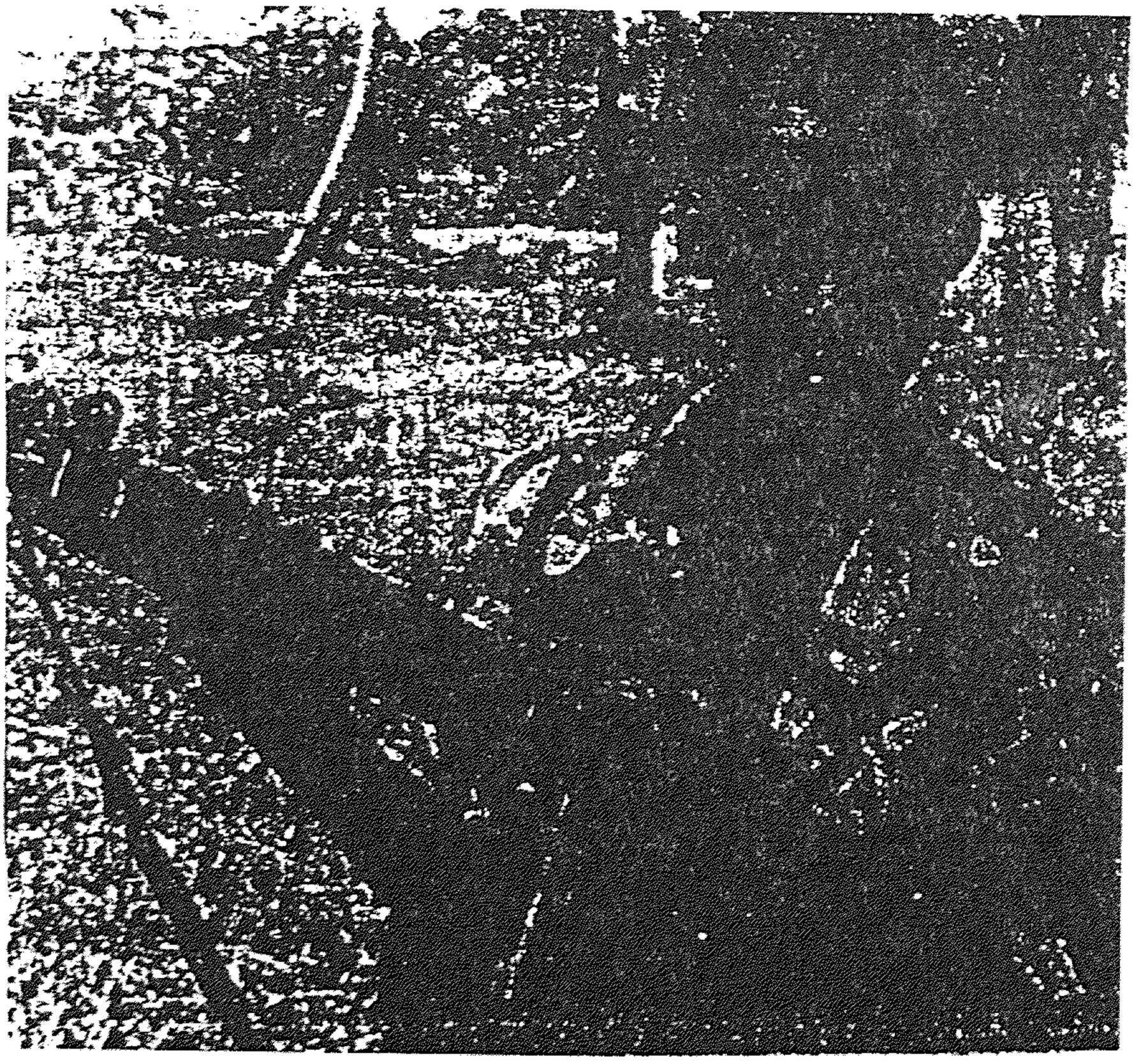

شكل ٤ - طفولة العنف فى جنوب السودان

ببليوجرافية

- تومبسون، ميشيل وآخران : نظرية الثقافة ترجمة على سيد الصاوى. الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٧ (عالم المعرفة ٢٢٣).
- تيلور، بيتر وكولن فلنت : الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، ترجمة عبد السلام رضوان واسحق عبيد. الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٢ (مجلدين) (عالم المعرفة ٢٨٣، ٢٨٤) .
- Douglas, Mary (ed.) :Essays in the Sociology of Perception. London, Routledge and Kegan Paul, 1982.
- فاروق عبد الجواد شويقة : الإكلوجيا البشرية؛ المفهوم - المجال - الهدف. مجلة الدراسات الأفريقية. العدد الثالث، ١٩٧٤، ص ١٨٣-٢٠١
- ـــــ ، العلاقة بين الأنثروبولوجيا والجغرافيا. مجلة كلية الآداب-جامعة القاهرة، مج ٥، ع١، ١٩٩٠، ص ١-٥١، ببليوجرافية ٤٩-٥١
- ـــــ ، أفريقيا وحوض النيل، ط٢، أ, ٢ القاهرة، دار روتابرنت، ١٩٨٦
- ـــــ ، الجغرافيا الأنثروبولوجية. القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٨
- Smith, A.D. : The Ethnic Origins of Nations. Oxford, Blackwell, 1986 .

أ. د/ فاروق عبد الجواد شويقة

الثلاثاء ١٧ فبراير ٢٠٠٤